

## الفكر التاريخي وجدلية الذات والآخر

### قراءة في مسرحية "عقد الجوهر" لمحمد بن قطاف

د/ سهيلة بلحوالة

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم (الجزائر)

#### ملخص:

يرتبط الكاتب المسرحي ارتباطا وثيقا بالمجتمع من حوله ويتفاعل معه مما يؤدي إلى تشكيل علاقات تدخل في جدلية مع ما يروج في الوسط الاجتماعي الذي ظهر فيه النتاج المسرحي يأخذ القضايا الحيوية التي يهتم بها الإنسان بشكل عام ليصوغها بوعي فني وتاريخي يؤكد دائما أن المسرح منذ نشأته حتى الآن قد مس العنصر الإنساني من قريب أو من بعيد.

من هذا المنطلق تتحدد بداية الصراع بين ما يسمى بالأصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة، لنجد أنفسنا أمام فاصل نعجز من خلاله عن تحديد ثقافتنا. ومن أجل الإحاطة بالإشكال لابد من التأكيد على ثنائية الذات والآخر ومدى الدلالات التي تحملها واتساع آفاقها وعمق مغزاها، لأن الفكر التاريخي عانى ولا يزال يعاني من اضطراب بين الأصالة والمعاصرة، بين الأخذ من التراث أو تشكيل ما يسمى بالحداثة، من هنا تظهر ملامح تساؤل : ماذا يقدم التاريخ للكاتب المسرحي ؟

وهذا السؤال قد نجد له جوابا إذا ما تفحصنا بعض جوانب مسرحية "عقد الجوهر" التي نلمح من خلال تتبع أحداثها أن محمد بن قطاف كان أمامه المجال واسعا لاختيار الموضوع التاريخي الذي يطرح إشكالية الأصالة أو التراث قضية لا معنى لها دون الوصول إلى تطور يفرض نفسه، ويوجب على المسرحي في هذه المرحلة تحليل الحاضر وتحديد مشكلات المجتمع الجزائري بوعي تاريخي تتحدد من خلاله أهداف المجتمع وتنبعث الثقافة الجادة. وفي الأخير نصل إلى تقليص الفجوة بين الذات والآخر لأن اتساعها يوما بعد آخر كان من نتائجه أن سيطر على العقل البشري حالة من التيه عن الواقع الراهن وغياب عن الفكر التاريخي والدخول في صراعات فكرية حول الماضي والحاضر، التراث والحداثة، ويظهر ما يسمى بالانتحار غير المعلن للهوية.

#### نص المقال:

من خصائص الفن المسرحي وأبرزها تلك الخبرة الإبداعية والموهبة التي تبرز لدى الكاتب المسرحي وارتباطه الوثيق بالمجتمع من حوله و تفاعله الحي معه مما يؤدي إلى تشكيل علاقات تدخل في جدلية مع ما يروج في الوسط الاجتماعي الذي ظهر فيه النتاج المسرحي مما يجعله يتعلق بأخذ القضايا الحيوية التي يهتم بها الإنسان بشكل عام ليصوغها بوعي فني وتاريخي يؤكد

دائما أن المسرح منذ نشأته حتى الآن قد مس العنصر الإنساني من قريب أو من بعيد بدرجة أو بأخرى، في تلك الأزمنة المختلفة التي تتجلى من خلالها مميزات الفكر التاريخي وخصائصه التي تعتمد ذلك التحليل والتفسير للرؤى وذلك التداخل والتراكم للأحداث الماضية من قصص وأساطير وحكايات تحمل الذاتي والموضوعي من حيث المضامين. من هذا المنطلق تتحدد بداية الصراع بين ما يسمى بالأصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة، لنجد أنفسنا أمام فاصل نعجز من خلاله عن تحديد ثقافتنا.

ومن أجل الإحاطة بالإشكال لابد من التأكيد على ثنائية الذات والآخر ومدى الدلالات التي تحملها واتساع آفاقها وعمق مغزاها. لأن الفكر التاريخي عانى ولا يزال يعاني من اضطراب بين الأصالة والمعاصرة، بين الأخذ من التراث أو تشكيل ما يسمى بالحداثة، من هنا تظهر ملامح تساؤل : ماذا يقدم التاريخ للكاتب المسرحي ؟

إنه يزوده بذلك العنصر الإنساني، النفسي، الوجداني والعاطفي الذي تخلقه الأحداث التي تكشف عن بطولة شعب عاش الآلام والآمال، النجاحات والخيبات، فكان التاريخ اذن تلك الزاوية التي تؤكد أو تراهن على وجود ثقافة دفيئة صنعت الماضي وها هي اليوم تساهم في تطوير الحاضر وبنائه.

فالكاتب يسعى دوما إلى التعامل مع أحداث التاريخ و شخصياته بتفاصيلها بحيث يجعل لهذا الحدث التاريخي أثرا في المتلقي، ويجعل فهمه للحدث التاريخي متداخلا مع فهمه لناحية من نواحي النفس البشرية. إذن التاريخ يطرح العديد من الدلالات لثنائية الأصالة و المعاصرة، والتراث والحداثة ، والتقليد والتجديد .

والإشكال هنا هو: أين المسرحي من كل هذا ؟ وإذا وجد، هل يكمن دوره في تسجيل ما حدث في التاريخ، أم يتجاوز ذلك لتصبح مهمته الإعداد لفكر تاريخي يحمل الكثير من الدلالات ويسهم في بناء الذات لتقف في مواجهة مع الآخر ؟

وهذا السؤال قد نجد له جوابا إذا ما تفحصنا بعض جوانب مسرحية "عقد الجوهر" التي نلح من خلال تتبع أحداثها أنه كان أمام محمد بن قطاف المجال واسع لاختيار الموضوع التاريخي و هو في كل ذلك لا يستغني عن أمور، منها خبرة واسعة بالحياة الإنسانية يستمد منها القدرة على خلق العالم الخاص بمسرحيته على النمط الذي يجري عليه العالم الإنساني العام بحيث تكون مسرحيته قطعة صادقة من الحياة. وإضافة إلى ذلك خيال خصب ترعرع في المدارس القرآنية، هذا الخيال ساعده على ابتكار صورة جديدة للحياة موجودة في التاريخ بأحداثه وشخصه وألوانه

وأجوائه، وألف بذلك صورة للشعب الجزائري تحمل الكثير من العادات والتقاليد والثقافات السائدة في تلك الفترة. إن خيال بن قطاف الخصب هو الذي ابتدع هذه الصور الجديدة وألفها من أشتات التاريخ بما يحمله من صور متفرقة.

واختياره للموضوع التاريخي لم يكن من باب تسجيل ما حدث في التاريخ كما حدث -حادثة المروحة مثلا التي اتخذت منحى آخر غير الذي ورد في تاريخ الشعب الجزائري- وإنما هدفه كان خلق عالم جديد تقع فيه الأحداث وتتصرف فيه الأشخاص وتنعقد فيه المشكلات وتصدر عنه النتائج مؤكدا على روح الثورة، ذلك الجانب المهم والإرث الوحيد الذي ورثه جيل ما بعد الاستقلال، الإرث الذي يمثل الدافع الوحيد و المحفز الذي يشجع المتلقي لتغيير وضعه وتحسين ظروف حياته.

كان لبن قطاف دائما هدف خاص، أو رسالة يتحمس لها، ويسعى جاهدا لتأديتها من خلال هذه الوقائع التاريخية التي يصورها في مسرحيته بمقتضى الصورة العامة التي تخيلها على ضوء معرفته بحياة ذلك العصر على وجه خاص وخبرته بالحياة الإنسانية على وجه عام مستهديا في ذلك كله بالهدف الذي يرمي إليه و الرسالة التي يريد أداؤها.

ففي مسرحية "عقد الجواهر" نجد جانبين أساسيين أحدهما هو الخط السياسي الذي يتمثل في الصراع بين الاستعمار الفرنسي والشعب الجزائري حتى انتهى بتحرير البلاد من المستعمر والثاني هو الخط الاجتماعي الذي يتمثل في الصراع بين الفقر وما تفرضه الحياة التي يتمنى أن يعيشها الفرد، فمن خلال قصة المسرحية يتحدد التاريخ وينطلق من 1830 تاريخ الغزو الفرنسي على بلادنا، مروراً بالمرحلة الأخرى التي مرت بها المقاومة الوطنية وصولاً إلى اندلاع الثورة التحريرية وتحقيق الاستقلال والحرية، هذا الحلم الذي لم يتحدث عنه محمد بن قطاف مباشرة وإنما وظف الرمز الشعري لتحديد مراحل تاريخية معينة واعتمد الذاكرة الشعبية ممثلة في عجز هي محور المسرحية والشاهدة على بطولة شعب مجيد.

وقد انتهى الخط السياسي بينما بقي الخط الاجتماعي حتى نهاية المسرحية لما يحمله من أهمية في ارتباطه بالمجال التاريخي وهما في حقيقة الأمر متداخلان في المسرحية ومرتبطان ارتباطاً وثيقاً كما هو واضح في المسرحية.

"الداي: أنت ما قلت حتى شي ...أنت كنت تراوغ ...

دوفال: يظهر انه وقت المراوغات يا ...سيدي ...و زيد راهي اندفعت مليون وميتين الف ...وأنا شخصيا قادر ان ...

الداي: من كم مليون ذهب تدفعوا هذا المبلغ التافه لليهودي بكري وتقولوا خلاص؟ ما كانش ديون؟...

دوفال: شركة باكري وبوشناق هي اللي وفرت كل المواد الغذائية وغيرها ...

الداي: وهذه المواد الغذائية وغيرها اللي انتفعت بيها فرنسا، امتاع موالين هذي البلاد... وهذه البلاد هي اللي وفرتها لشركة باكري وبوشناق ... وهي واسطة فقط ... والدولة امتاعك معترفة بهذا وحاطة خط يدها على عقود واضحة.

دوفال: لكن أرباب المال اللي تعاملوا مع هذا الشركة رفضوا الدفع ...<sup>(1)</sup> .

وبهذا يكون دور الجانب السياسي في المسرحية هو الوعي الواضح المباشر الذي سعى إلى تأثير إيجابي في شعب عاش ويلات الاستعمار وعانى الكثير ليكون الهدف في النهاية اكتساب حياة أفضل تسودها العدالة الاجتماعية ويرفرف عليها طعم العزة والكرامة ... هذا كله من خلال صفوف معركة طويلة قادها الأمل ... أمل في الحرية و الاستقلال.

وفي اطار حديثنا عن توظيف الكاتب للتاريخ الذي يجمع البعد السياسي والاجتماعي في قالب واحد يمكننا القول أنه إذا كانت التجربة التاريخية قد انتهت بمرور الزمن عليها "إلا أن استعادتها يمكن أن يكون لها مغزى بالنسبة إلى الحاضر الذي لم ينته بعد، ومن ثم يكون اختيار الكاتب للنموذج التاريخي ، موجها بما يترأى له فيه من مغزى ينعكس على الحاضر ويضيئه"<sup>(2)</sup>.

والكاتب في هذه الحالة يعمل على الربط بين الماضي والحاضر لذلك ارتأينا طرح قضية الفكر التاريخي وتشكيل رؤية الكاتب الإبداعية على أساس يعتمد توجه بن قطاف في الكتابة من خلال التاريخ الذي اتخذ مستويات عدة، أهمها تاريخي يعتمد أو يجسد تطور المجتمع في فترة الثورة وتناولنا في هذا السياق مسرحية "عقد الجوهر". هذا النص الذي يمشي في خط فني يقود إلى محطات فكرية اجتماعية وسياسية حساسة يضرب فيها على وتر الواقع بكل تناقضاته وصراعاته، فقد حمل بن قطاف على عاتقه مسؤولية تقديم القضية الإنسانية في معناها الشامل. ليكون التفكير التاريخي عنده تلك الزاوية التي تكشف عن حيرة الإنسان وهو يواجه تحديات الحياة من حوله، مصورا تاريخ البشرية في بحثها الدائب عن ذاتها، وخلال ذلك نلمس بعض الجوانب الفكاهية التي تقترن بهذه المواجهة الإنسانية.

فبن قطاف لا يهتم بمدى دقة تكرار الحادثة التاريخية لأنه يأخذ فقط الخطوط العريضة ويعيد بناءها مسرحيا لطرح وجهة نظره اتجاه الواقع بغية تغييره ولا يعنيه على الإطلاق أن يعيد التاريخ نفسه، بل يحاول تغيير التاريخ بشكل فني، فالتاريخ مجرد إطار\* فقط لطرح وجهة نظر جديدة.

فبن قطاف يبعث بأفكاره موضحا جوانب من الحاضر من خلال تلك الشخصيات التاريخية ليظهر مصادر المرض ومواطنه التي تكتسح كل عضو في جسم المجتمع الجزائري بهذا تحملنا المسرحية على إثماء أحاسيسنا للدخول في غمرة الصراع حتى تتولد لدينا طاقة جبارة لحل مشاكلنا والتغلب على الصعاب التي تعرقل سير انطلاقتنا لتحقيق غد أفضل، ليصبح التاريخ بذلك مصدر من مصادر الكتابة المسرحية فممنه يستمد الكاتب مادته ليصوغ عمله الذي ييئ فيه رؤيته الفكرية الخاصة، ويزاول قدرته على تشكيل الأحداث المختارة وتفسير دوافع شخصياتها، ومن هنا يثار التساؤل التالي:

- إلى أي مدى تصرف بن قطاف في المادة التاريخية عندما بنى منها مسرحية "عقد الجوهر" ؟  
إن الجواب يحتمل ثلاثة مواقف، إما التصرف الحر المطلق في المادة الخام، وإما الالتزام الحرفي بأصولها، وإما التحرك بين هذا وذاك وفي ذلك ما ينبغي توضيحه، لأن الشك في صحة الأحداث التاريخية في بعض الأحيان أو ضعف الوثوق في صدق حقيقتها ومن هنا ظهر الموقف الأول الذي يرى معه بعض الكتاب ضرورة التصرف المطلق عند استغلال المادة التاريخية "فإذا كان التاريخ - الذي لا يمكن أن يكون كله محل شك من ناحية حدوثه كواقع - مجرد عامل ثانوي بالنسبة لأهمية الخيال وتصوراتها في العمل المسرحي"<sup>(3)</sup>، لذلك كان هذا الحوار أهم أسس التي أثرت فكرتنا ودعمت رأينا فيما يخص كيفية تعامل الكاتب مع الوقائع التاريخية.

"المنادي: ( داخلا مسرعا ) ...تجنّدوا تجنّدوا يا أهل البلد ...  
الوطن في خطر ...

والعدو زاحف مستمر ...  
وليبغ موتاكم أحياءكم ..."<sup>(4)</sup>.

لهذا يمكن القول، إن التاريخ من منطلقه الفكري الإبداعي يتحرك داخل نطاق الفن المسرحي وحدوده ومنطقه وبنائه الخاص بمعنى أن التاريخ عليه أن يكتسب من خلال الكتابة المسرحية دلالات إنسانية عامة، وإلا أصبح أثره محدودا أو سطحيًا، ومن هنا كانت ضرورة توظيف الفكر التاريخي للخروج برؤية إبداعية.

"الداي: نكران للجميل، و اختلاس أموال الغير ، هذا الشيء اللي ينفهم من حديثك.

دوفال: نكران للجميل؟ آش من جميل ؟

الداي: الجزائر انقذت الشعب الفرنسي من الموت على الأقل مرتين، عاود اقرا تاريخ بلادك.

دوفال: تاريخ بلادي قريته كما ينبغي ...

الداي: ربما اتقطعت لك الصفحة المتعلقة بمجاعة 1743، وبين كان الشعب الفرنسي يموت بالآلاف من الجوع والمرض، والانجليز ضارب عليكم حصار في البر والبحر، وشي ما يقدر يدخل أو يخرج... امتاع من السفن اللي اخترقت الحصار بالقوة ووصلت لكم الحبوب والمال اللي انقذوكم ؟ ... امتاع الجزائر اللي جاي أنت اليوم باسم فرنسا تتنكر لها ... دوفال : انا على كل حال ما نيش هنا باش نتكلم على التاريخ ... والشئ اللي كان عندي نقوله قلته"<sup>(5)</sup>.

إذن فقد اختار بن قطاف تجارب متصلة ومحددة تصلح لإبداع نموذج طبقا لقلب درامي معين يصب فيه أفكاره ومهاراته في الصياغة المسرحية، وخلال عملية التصنيع هذه يلتزم بالهيكل الأساسية في أصل التاريخ كما حدث لذلك يمكننا القول أن بن قطاف كرس شطرا كبيرا من كتاباته للتأكيد على الرؤية الإبداعية النابعة من الفكر التاريخي على أمل أن يحدث تغييرا في المجتمع يتم في مراحل تدريجية، حتى أصبح في كثير من الأحيان يتناول الأحداث التاريخية المساوية تناولاً كوميدياً (حادثة المروحة مثلا). لكن هناك موقف آخر يوجب الالتزام الحرفي بالوقائع حتى التفصيلية منها كما وردت في التاريخ "وكان العمل المسرحي للأسف وثيقة تاريخية عريضة مسؤولة عن تسجيل كل شيء"<sup>(6)</sup>. لذلك لا بد أن نتساءل عن ما مدى يحق للكاتب المسرحي أن يتلاعب بالتاريخ ويتدخل في أحداثه ؟ وإلى أي مدى تحكم الحقيقة التاريخية الكاتب المسرحي في معالجته للمادة التاريخية ؟

إن "في أيامنا هذه يزداد واجب الكاتب أهمية عندما يختار موضوعا من التاريخ على أن يعرضه عرضا دقيقا صادقا من الناحية التاريخية"<sup>(7)</sup>. ولا يفوتنا في هذا الإطار مطالبة الكاتب بالقيام بشيء من الإطلاع في ثنايا التاريخ وجزئياته لتجنب أي تشويه للحوادث وأي خطأ في ترتيب الحوادث التاريخية، لكن هذا لا يعني أن الكاتب في توحيه الدقة والصدق في الناحية التاريخية سيقترب من مهمة المؤرخ وإنما يكون له قدرا من الحرية في العمل وفق قوانين خاصة "إن الكاتب الذي تحمل مشقة ابتداء شيء وخلقه وفقا لخطة سابقة يطالب بالاعتراف به ككائن حي لأنه صاحب خلق جديد حر"<sup>(8)</sup>.

وهذا الخلق يختلف بالضرورة عن الكتابة التاريخية التي تعنى كثيرا بتدوين الحقيقة التاريخية كما وقعت بالفعل ليصبح من واجب الكاتب المسرحي الحذر من الوقوع فريسة لما رواه المؤرخون وإنما "يتجاوز ما رواه المؤرخون في بعض المواقف ولكنه لا يخرج عن الحدود العامة"<sup>(9)</sup>. وفي سياق

حديثنا يمكننا تسليط الضوء على مسرحية "عقد الجوهر" وكيف تعامل بن قطاف مع حادثة المروحة - باعتبارها واقعة تاريخية ذات أهمية في تاريخ الجزائر - وأعطائها صدقا تاريخيا وبعدا فنيا. " (دوبرمون في ميناء تولون يخطب في الجيش قبل انطلاقه نحو الجزائر ).

دوبرمون: أيها الجيش المحرر... يا أبناء الصليب... المسيحية كلها تنظر إليكم ومعلقة آمالها الكبيرة فيكم... أنتم ماكمش متوجهين لهذه البلاد باش تقعدوا فيها مدة طويلة... أنتم ماشيين لتحرير كل المسيحيين المضطهدين اللي مسلسلين في قيود العبودية ويموتوا في سجون هذا البرابرة... أنتم متوجهين لهذه البلاد، باش تردوا على الإهانة اللي توجهت لبلادكم الغالية... هذه الإهانة اللي توجهت لعلم فرنسا لما صفع سلطان هذا الوحوش القنصل "دوفال" وشتمه.. هذه الإهانة، الرد عليها اليوم يناديكم من وراء البحار . الجيش: إلى الجزائر... إلى الجزائر.

دوبرمون: فرنسا هنا وتبقى هنا (مشيرا إلى الجزائر) فرنسا ستأخذ كل هذه البلاد الواسعة الشاسعة، لتحرير سكانها من الفقر والجوع والمرض... ولو أنهم برابرة متوحشين، ما عندهم لا إيمان لا خوف الرب، فنحن المحررون، نحن المتحضرون، باسم المسيحية نحمل لهم حضارتنا الراقية، وإنسانيتنا وأهدافها السامية... سيروا اليهم بلا خوف... سيستقبلونكم كمحررين لا كمستعمرين. الضابط: ما تتوقعش تاخذهم غيرة وطنية ويقاثلونا؟

دوبرمون: وحوش متكاملة على بعضها بعض ما يفهموش ما هي الروح الوطنية... هم عبارة على مجموعات وقبائل هاملة ومنتشرة في طول البلاد وعرضها... وأول ما يشوفوكم يهربوا للجبال" (10). كان لاستخدام التاريخ عند بن قطاف خصائصه ومظاهره بسبب الهدف الذي كان يرمي إليه، لأن الفكر التاريخي كان سلاحه الأقوى عند مواجهته للجمهور وتقديمه أحداث تاريخية تحمل شخصيات فذة يفتخر بها أي فرد جزائري وكان ذلك مدخلا صحيحا وجميلا إلى القلوب والعقول من ناحية المضمون أما الشكل فكان هم بن قطاف إيجاد طريق للوصول إلى شكل يطور من خلاله أدواته الفنية، بحيث جسد الوقائع التاريخية في مسرحية عقد الجوهر مثلا وكان ذلك من خلال تأكيد أحداث وقعت بالفعل منذ 1830 لكن لم يتعامل معها من جانبها التاريخي فقط لأنه في الحقيقة ليس مؤرخا و إنما زودها بحيز فني وجمالي، فكان الداوي حسين مثلا شخصية نحيفة جدا وقصيرة والمروحة كبيرة جدا بذلك احتملت حادثة المروحة- التي يعرفها كل فرد جزائري- التفسير الكوميدي الذي أخرجها من قالبها التاريخي ومسرحها بطريقة مميزة.

"عقد الجوهر" رسمت مجموع كل الثورات التي كونت عقد الجوهر الذي وضعته سعدية في الأخير و كان بذلك البطل الوحيد في هذا العمل هو الشعب الجزائري وليس فرد بعينه. "ساعد: خسئت يا كذاب... العزة ما تفنى ما تموت... العزة متفرقة في قلوب الرجال. الكتلة: عزتنا ثابتة في التراب... في الشجر والحجر... في قطرة الماء الجامدة... في روس الجبال الشامخة... عزتنا تهب مع الريح طالعة... عزتنا من السماء في الأمطار نازلة... في سحب اكحل... في برق يشعل... في بركان جهل. في النجوم في الشمس الضاوية عزتنا ثم... ساعد: العزة ما تفنى ما تموت... العزة متفرقة في قلوب الرجال..."<sup>(11)</sup>.

ومن هنا اعتمدت كتابات بن قطاف منذ البداية على أحداث من التاريخ وما تزال، بحيث شقت لنفسها طريق الوصول إلى المتلقي الجزائري، وإذا كان التاريخ يشمل الأحداث والسير الشعبية، فإن بن قطاف أخذ منها كلها واستخلص منها الحكمة والعبرة.

ولأنه على المسرح تجسيد كل هذا وإبرازه لتحقيق رؤية الكاتب الإبداعية التي لها الحق في أن تحذف من التاريخ وتضيف، لكن الكاتب المسرحي يحذف الجوانب التي لا تخدم الحكاية الأساسية ولا تسهم في تطور صراعها لكن لا يمكنه تجاوز حقائق تاريخية كبرى ومهمة لأنه سيجد منفذه الإبداعي الكبير في استنتاج وخلق مشاعر شخصيات وصراعاتهم وهم يقومون بالفعل التاريخي على أن لا يتقاطع ذلك مع روح الواقعة التاريخية.

وأحداث التاريخ ساعدت بن قطاف على بلوغ هذه الغاية واستطاع أن يربط بين التاريخ والواقع وما يعيشه الفرد الجزائري من معاناة فيما بعد الثورة.

لقد سعى بن قطاف إلى تطوير مجتمعه وتخليصه من الفساد والتخلف وإلى التخلص من الهيمنة استعماراً كانت أم ارتباطاً اقتصادياً وقد حمل المسرح هذه الغايات منذ نشأته وقد كان التاريخ من أهم الجوانب التي أبرزت الغايات الفكرية التي هدف إليها بن قطاف، فكان الفكر التاريخي الذي كان مصدره الثورة وسيلة لشرح الأفكار المعاصرة لكل جيل ولكل مرحلة من مراحل التاريخ المعاصر، وكان أيضاً أكثر إقناعاً للمتفرج من المادة الواقعية لأن له مدلولات فكرية وأبعاد جمالية تعطي للكاتب أو تمهد الطريق أمامه لإيصال ما يريده إلى الجمهور، وينتقي الكاتب من التاريخ أحداث تمثل منعطفات هامة لكنها في الحقيقة تمر بعدة مراحل كما هو الحال بالنسبة لبن قطاف بحيث نجد أولاً:

**النهوض السياسي ومواجهة المستعمر:** كانت المسرحيات في هذا الجانب تعرض لأبعاد الثورة الجزائرية لإثبات قدرة الفرد الجزائري على المقاومة لإبراز خصائصه الإنسانية... كما أنها اعترفت

بالحقيقة التاريخية كما يعرفها الجميع و كما اعتاد أن يستخلص منها العبرة ليرتبط بها في موقف معاصر، لكن هذا لا ينفي أن الكاتب بن قطاف أضاف إلى الحقائق جزئيات جمالية يختص بها خياله الفني، ليكون هدف "عقد الجواهر" تأكيد الحقيقة التاريخية بلهيب العواطف وحسم المواقف. وبذلك كان الفكر التاريخي في هذه المسرحية إطارا زمنيا قديما لأفكار معاصرة كما هو الحال بالنسبة لمسرحية "عقد الجواهر" ومسرحية "قف" التي تحدث فيهما بن قطاف عن جانب مهم من السياسة متخذا التاريخ وسيلة لذلك و بالتحديد الثورة الجزائرية.

فلاحظ ظهور شخصية آمال في مسرحية "قف" ترمز لآمال ما بعد الاستقلال أما في مسرحية "عقد الجواهر" نجد شخصية ساعد وهو يتحدث أيضا عن آمال ما بعد الاستقلال. "ساعد: في خلق آمال كل واحد كاتمها داخله، وكل واحد مترجها تبان ويحضرها... ما فيها بطل ما فيها طلاب ما فيها مساح... ما فيها حمال ما فيها ما فيها وما فيها..."<sup>(12)</sup>. نفس الملاحظة بالنسبة لشخصية حورية التي ترمز إلى الحرية التي نالها الشعب الجزائري وهذا في مسرحية "قف"، أما في مسرحية "عقد الجواهر" تتحدث العجوز عن حورية وهي الحرية التي يحاول الشعب الجزائري الوصول إليها. "العجوز: فوق نجومى نجمة طلّت... سقسست الاشياخ وين سكنت... قالوا حورية اسمها... وبعيد الفوق برجها... و عقد الجواهر في حجرها... وشكون يزين رقبتها"<sup>(13)</sup>.

#### خاتمة:

لقد اختار بن قطاف أحداثا تاريخية عديدة ومتنوعة، رئيسية وثانوية وجعلها وسيلة فنية أساسية واقعية من جملة وسائله الفنية الواقعية الأخرى في المسرحية، وأنشأ بينها وبين كثير من عناصر البنية الدرامية علاقات إبداعية من خلال المعالجة الفنية، حيث تميز حضورها الفني كما ونوعا في المسرحية، وعلى الرغم من أن بن قطاف قد غطى المسرحية بأحداث المرحلة التاريخية (المحددة بالثورة الشعبية) بكثافة تملأ فكر المتلقي وذائقته الجمالية، نتيجة تأمله الفكري وتذوقه الجمالي المشروطين عليه من خلال صياغة الإبداع بين الفن المسرحي وبين الأحداث التاريخية التي وظفها فيما يهم القضية الوطنية بالدرجة الأولى، وحسد ذلك عبر المعالجة الفنية في التنوع الاجتماعي والسياسي و تناقضاتهما.

سخر بن قطاف تفكيره التاريخي في توظيف أحداث تاريخية معالجة فنيا للكشف عن الواقع الموضوعي للمجتمع الجزائري وعن ظروفه الاجتماعية والسياسية المتنوعة الواعية والعفوية بهدف

إعادة النظر فيها، أي وعيه وعيا تاريخيا فنيا من خلال التفكير التاريخي والوعي الجمالي لمختلف الظروف الاجتماعية والسياسية.

إننا نجد مسرحية "عقد الجوهر" قد عكست فنيا الواقع التاريخي للمجتمع الجزائري تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي، في إطار النضال الوطني التحرري للشعب الجزائري... ربط بن قطاف الثورة بالحركة السياسية والواقع الاجتماعي ونظر إليهما في علاقتهما الجدلية ورصد هذه العلاقة من خلال التصوير الفني لسيروية الواقع الاجتماعي بكل تنوعاته وتناقضاته وإفرازاته، وعبر تطوير الحدث ومتابعته قدم صورة فنية واقعية متحركة تعكس الواقع المتحرك على أرضية اجتماعية.

ولنعد لنؤكد دائما أن للمسرح التاريخي دور هام يتمثل في ارتباطه ارتباطا وثيقا بمعرفة طبيعة الفن ذاته، وعلى وجه الخصوص طبيعة المسرح. "إن وظيفة المسرح السياسي لا تكمن فقط في التعبير عن الثورة المكبوتة وعن الرغبة في التغيير والتحرر وإنما هي أيضا وظيفة فنية إلى أبعد الحدود"<sup>(14)</sup>. هذه الوظيفة التي ارتبطت بالتاريخ الذي شكل مادة هامة وخصبة للكاتب المسرحي وكان ذلك منذ البدايات الأولى للمسرح حيث استلهم بن قطاف الأحداث التاريخية في أعماله ليكون المسرح ذلك الفن الذي يذهب إلى تلك المساحات الفارغة في التاريخ لينفذ من خلالها كما فعل في مسرحية "عقد الجوهر".

وفي هذا السياق يمكننا أن نشير إلى ما ذكره بن قطاف عن التاريخ، ذلك الجوهر الذي يجسد مظهرها اجتماعيا ويترجم صراعا سياسيا، لأن أهمية توظيف ثنائية الفكر التاريخي والتوجه السياسي تستمد حضورها من كونها جزئية متشعبة في التحليل والتفسير والرؤى، مستقلة ومتداخلة، وتراكمات التاريخ الماضية من قصص وخرافات وأساطير وحكايات تمتاز بالانفتاح بحيث تبدو أحيانا متشابهة في بعض أحداثها، ومنسجمة في وقائعها السياسية وتحليلاتها.

لذلك يبقى التاريخ بأحداثه الجزئية الأكثر أهمية والتي تعين الكاتب على بلوغ هذه الغاية أكثر مما تعينه أحداث الجيل المعاصر، لأن أحداث التاريخ قد تبلورت على مر الأيام فاستطاعت أن تنتزع عنها الملابس والتفاصيل التي يوظفها الكاتب للوصول إلى الهدف الذي يرمي إليه في عمله المسرحي الذي يبنى على أساس الاختيار، لأن إشكالية الأصالة أو التراث في الفكر التاريخي قضية لا معنى لها دون الوصول إلى تطور يفرض نفسه ويوجب على المسرحي في هذه المرحلة تحليل الحاضر وتحديد مشكلات المجتمع الجزائري بوعي تاريخي تتحدد من خلاله أهداف المجتمع وتنبعث الثقافة الجادة، لنصل في الأخير إلى تقليص الفجوة بين الذات والآخر لأن اتساعها يوما بعد آخر كان من نتائجه أن سيطر على العقل البشري حالة من التيه عن الواقع

الراهن وغياب عن الفكر التاريخي والدخول في صراعات فكرية حول الماضي والحاضر، التراث والحداثة، ويظهر ما يسمى بالانتحار غير المعلن للهوية.

#### هوامش البحث :

- (1): محمد بن قطاف، مسرحية "عقد الجواهر"، نص مسرحي مخطوط، المسرح الوطني الجزائري، ص4-5.
- (2): عز الدين اسماعيل، توظيف التراث في المسرح، مجلة فصول (المجلد الأول)، العدد الأول، القاهرة، أكتوبر 1980، ص174.
- (\*) : نتساءل: ما أهمية أن يعيد الكاتب التاريخ بمحتواه الآن، وكتب التاريخ أكثر صدقا إلا إذا أراد أن يقول الكاتب.
- المسرحي شيئا من خلال هموم الواقع . لذلك لابد لنا أن نشير أن الكاتب قد يفرغ التاريخ من محتواه .
- (3): د. ابراهيم حمادة، هوامش في الدراما و النقد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988، ص 53.
- (4): محمد بن قطاف، مسرحية "عقد الجواهر"، ص 35.
- (5): م . ن، ص4.
- (6): د. ابراهيم حمادة، هوامش في الدراما و النقد، ص54.
- (7): ألاردس نيكول، علم المسرحية، تر:دبرني خشبة، دار سعاد الصباح، القاهرة، ط1، 1993، ص126.
- (8): جان بول سارتر - مسؤولية الكاتب في الرؤيا الإبداعية، تر : أسد حليم، مكتبة تحضة مصر، القاهرة، 1966، ص233.
- (9): محسن اصييمش، الشاعر العربي الحديث مسرحيا، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977، ص 70.
- (10): محمد بن قطاف، مسرحية "عقد الجواهر" - ص 15، 16.
- (11): م . ن، ص 22.
- (12): م . ن، ص 37.
- (13): م . ن، ص 39.
- (14): د. أحمد العشري، مقدمة في نظرية المسرح السياسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989، ص20.